

## حمار بوريدان

بقلم السيد محمد روجي فيصل

...

لعل أشد الأدواء تشكاً في النفوس ، وأكثرها ذبوعاً وانتشاراً ، وأعمقها أضراراً وتلفاً ، هذا الضعف في الإرادة أو التردد في العمل . يقعد المرء عن تحقيق رغائبه وآماله ، ويمسكه عن تنفيذ مشاريعه وخطته ، ويحول بينه وبين الانتاج المتصل الذي يفيد الأمة ويفيد الانسانية ثم يدفعها نحو المثل العليا الثلاثة : الخير والجمال والحقيقة

ومن المصعب أن التردد على شدة فتكه وكثرة ذبوعه وعمق تنقله لا يحسب حساباً ولا يلتفت إليه كأنما هو عرض من هذه الأعراض الهيئته اليسيرة التي لا قيمة ولا وزن ، أو كأنما هو شذوذ خفيف ضئيل في اتجاه مجرى الإرادة الصحيحة القوية ! ولمر الحق ما شئ . أنكس للرق والمدنية وأدعى الى الجمود والموت مثل التردد والاحجام « يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده ، ويشل عقله ، ويتركه فريسة للألم من ضعفه ، والجل من صحبه . تظهر أعراضه في صنار الأمور وكبارها ، فيكون في استقاء الثوب واختيار الحالة ، وفي الاقدام على الزيارة القصيرة والرحلة الطويلة ، ويدخل في لذات الرجل وأعماله ، كما يدخل في إداره وإقباله » (١)

أجل ! يكون التردد في زورة الصديق ، وافتتاح الحانوت ، وارتياذ المهني كما يكون في طلب العلم والقوت والمال . وسواء أدخل في حقير الأمور أم جليلها فأنما هو يقف النهضة ، ويبطئ الحركة ، ويعوق عن التجدد والابداع

لقد كشف السيكولوجيون عن نفسية التردد ، وأوضحوا للظاهر المتباينة العنيفة التي تطنى عليه وتأخذه بالحيرة والقلق فقالوا إن كل فعل إرادي لا بد أن يجتاز على التوالي أربعة أطوار :

( ١ ) تصور غاية الفعل ، وإدراك المقصود من تحقيقه

( ٢ ) طور الموازنة والمفاضلة . ذلك بأن كل فعل إرادي له بواعث عقلية وجدانية تحلقها الأهواء والميول ، وتنفيذها المواطن

(١) راجع « التردد » في العدد الخامس من الرسالة

والنزعات ، وتنميتها الشاعر والأحاسيس . وعوامل عقلية ذهنية مصدرها المنطق والمحاكمة والمعرفة . فالمرء في هذا الطور يوازن بين البواعث العقلية والعوامل العقلية ويتأصل بينهما ، ويقوم بعملية حساية يزن بها قيمتهما

( ٣ ) طور التقرير ، وذلك أن المفاضلة بين البواعث

والعوامل لا بد أن تسفر عن نتيجة هي حل الفعل وتقريره

( ٤ ) طور التنفيذ — والتنفيذ تلج يزين هام الفعل

الإرادي ، ويتم محاسنه

شاء بعضهم أن يحذف من هذا التقسيم طور التنفيذ لأن

الفعل الإرادي في نظره غير مرتبط من الوجهة النفسية بالتنفيذ

أو عدمه . على أنه ينبغي أن يكون ثمة بدا : في تحقيق الفعل واتجاه

نحو العمل . لذلك قلنا إن التنفيذ « تلج يتم محاسن الفعل

الإرادي ويزين هامته »

فالتردد إما يكون في الطور الثاني ، طور الموازنة والمفاضلة .

والتردد إما تتجاذبه البواعث والعوامل ، يوازن بينهما ويفاضل

بين قيمتهما ثم لا ينتهي من موازنته ومفاضلته ، ولا يضع حداً

لهذا الاضطراب والتخوض . تتجاذبه بواعث القلب فتتأصل ظلاله

ويطمئن الى أفئانه ، ثم لا تثبت عوامل العقل أن تخرجه من طأ تئنته

وتغزو نفسه كلها . فهو ساحة حرب ما تكاد البواعث العقلية

تنتصر فيها حيناً إلا لتتخذل وتراجع أمام قوة العوامل العقلية ،

ورشة منعتها ، وعظمة سلطانها

هكذا كتب الله على التردد أن يقف بين بين ، لا يقرر

ولا يتخذ وإنما يخضع لطائفة من الاعتبارات النفسية للمعاكسة .

وهذه الاعتبارات قد تنشأ عن خصب في الخيال ، وسعة في

المعرفة ، وقوة في التفكير . وقد تنشأ عن تيقظ في الحيوية

الانفعالية ، واشتداد في الميل والهوى . وتدفع في الرغبة والعاطفة

ومهما يكن منشأ هذه الاعتبارات القوية فإن التردد عضو

أشمل « يعيش على هامس المجتمع البشري » كما يقول الدكتور

بلوندل

\*\*\*

قد تسأل بعد هذا : إذا كان الأمر ما تقول فما شأن الحيران

هنا ؟ ومن يكون بوريدان هذا ؟ وما هي العلاقة التي تصل عالم

النفس الانسانية بعالم « الحير » ؟؟

الحق إنه سؤال وجيه ممن لا يعرف وجه الاتصال والتقارب.

العملية . فالخيرية التي نلحمها على طائفة من الأمور دون أخرى هي خيرية سابقة للتجربة ومتقدمة على للمشاهدة *apriori* . فلنزاول إذن كل الأمور ولننتصل بكل شيء ، ولتكن حياتنا ملآى مستفيضة الجوانب ، متصلة الحركة ، قوية الإرادة

والإرادة العاملة المحركة هي بكنه الوجود وأس الكون كما يقرر شوبنهاور<sup>(١)</sup> إذ يعتقد أن الأحياء جميعاً محكومون بإرادة باطنية لا شعورية عمياء ، دائبة الهمة والنشاط ، متجددة الشهوة والرغبة ، تسيطر على الفكر والعقل سيطرة عظمى .

إن صاحب الإرادة القوية سيد عواطفه وآرائه ، فرغائبه تنقلب آناً إلى إرادة فاعلة ، ليس يعرف المستحيل ولا يقر بوجوده في قاموس الأعمال !!

\*\*\*

وبعد . ما دواء التردد ؟ وكيف السبيل إلى الشفاء من هذا الداء ؟ ذكر أطباء النفس طائفة من العلاجات الناجعة ، منها ماهو لمداواة الجسم ومنها ماهو لمداواة الروح : ينبنى قبل كل شيء

ترويض الأعضاء وتقوية الحواس وامتلاك الصحة لأن للإرادة أساساً عضوياً ، ولستنا نبالغ إذا قلنا إن قوة المضلات هي الصورة الأولية الابتدائية لقوة الإرادة . فالمرضى لا يستطيع تحقيق أمانيه لأن جسده قاصر العزم خائر القوى ، وينبني الطاعة وحس النظام ، فالطفل إذا أطاع غيره فاعلم كيف تكون السيادة على الذات وقهر النفس ، وهنا قد يكون للأسرة والمدرسة الأثر البالغ في ذلك

كذلك ينبنى تثقيف العقل وتهذيب الشعور . أما تثقيف العقل فيكون بالتفكير الصحيح ، والانتباه الثابت ، وتصور غاية الفعل بصورة محسوسة مسهبة ، وإدراك مختلف المذاهب والنحل .

وقد قال ديكرت « إن الإرادة القوية في العمل تقتضى وضوحاً شديداً في العقل » . وأما تهذيب الشعور فيكون بالنيل إلى المثلى العليا الانسانية ، والاعتدال في الحب والهوى بحيث لا تظني البواعث القلبية على العوامل العقلية فتجري الموازنة في جو هادئ ثم تسفر عن التقرير والتنفيذ ويسلم المرء مما وقع فيه حمار بوريدان .!

حمص محمد رمهي فيصل

فأما بوريدان فهو فيلسوف من فلاسفة اللاهوت والدين المسيحي في المصور الوسطى ، ولد في مدينة بيتون من أعمال فرنسا الشمالية وتوفي عام ١٣٦٠ ميلادية . ينتسب إلى مدرسة « السكولاستيك » الشهورة بالجدل اللدني والتفكير النبي ، والتي من رجالها « روجر باكون » و « القديس بونا فانتير » و « دوتزسكوت » . وأما الحمار فقد شاء بوريدان أن يوضح « حرية الاختيار » في الحياة والنفس بتشبيه طريف ومثل قريب فافترض وجود حمار جائع ظمآن على مسافة معينة واحدة من إناء فيه ماء عذب ، ومعلف فيه تبن وشعير . . . وطلق الحمار يفكر على جوعه وظمئه بأي الأمرين يبدأ : أعلاً بطنه أولاً أم يروى ظمأه ؟ فما يكاد يتجه نحو الماء مثلاً حتى ينكفي راجعاً نحو التبن والشعير !! وقد كان في وسعه أن يختار الذي يريد وطمع مايهوى ، ولكن الحمار المسكين يق يفكر على ذلك النحو من النطق العميق حتى سقط جثة هامدة ، ومات جوعاً وظمأ !!

هذه القصة الموجزة الخيالية تصور ، غير حرية الاختيار ، طبيعة التردد وعاقبة التردد . فأما طبيعة التردد فقد شرحتها من الناحية النفسية ، وأما عاقبة التردد فهي كما رأيت : الفناء والموت . ذلك بأن الحياة تتطلب السرعة والحركة والعمل لا الجمود والاحجام . وكل من لا يس الحياة وخاض غمارها فاعلم ينبنى له أن يعمل ويعمل ، لا يابه بالوانع والصعوبات التي قد يصادفها في طريقه وتمتربها رجلاه ، وإلا فان مصيره المحتوم التخلف عن الحياة ، والانحدار نحو التفكك والانحلال . يذهب غويو Guyau إلى أن العمل المستمر أو الفاعلية الشديدة إنما يجب أن تكون المثل الأعلى في الأخلاق ، لأن الحياة ليست تردداً ومحاسبة وإنما هي عمل وإنتاج *Vivre, ce n' est pas calculer, c' est agir* .

ولستأحجب هنا أن نقيّد الفاعلية الشديدة بالخيرية والشرية ، وإن شئت فقل إننا لن نعترض للخيرية والشرية في صدد الحث على الفاعلية الشديدة والجهد الدائم .

وعلم الأخلاق الحديث المبني على التجربة والمشاهدة بأبي ذلك وينفر منه كل النفور . فما يدرينا أن الأمر الذي نحكم بخبريته ونسرف غايته يصبح شرأ كله إذا نحن طبقناه ومارسناه في الحياة

(١) راجع الصفحات الأولى من كتابه « العالم إرادة »